

العلاماتية أو علم العلامات
بين فردناند دو سوسير وشارل سندرس بيرس

عبد الرحمن بوعلي

ملخص البحث:

لا تشكل هذه الدراسة سوى مدخل للتعرف على هذا العلم الجديد/ القديم الذي يسمى "السيمولوجيا" أو "السيميوطيقا". وقد حاولنا فيها أن نقوم بتتبع منابع هذا العلم، ومقارنين بين جهود العالمين السويسري "فردناند دو سوسير" والأمريكي "شارل سندرس بيرس". إن الهدف الأسمى الذي وضعناه لهذه الدراسة كان التعريف بـ "العلاماتية أو علم العلامات" على اعتبار أنها باتت تشكل أهم طريقة في الدراسة والبحث، من بين الطرائق الأخرى.

الكلمات المفتاحية: السيمياءيات، السيمولوجيا، السيميوطيقا، فردناند دو سوسير، شارل ساندرس بيرس.

Résumé:

Cette étude ne constitue qu'une introduction à cette science nouvelle/ancienne qui se nomme sémiologie ou sémiotique. Nous avons essayé de suivre ses sources en comparant entre les efforts de deux scientifiques, le suisse Ferdinand de Saussure et l'américain Charles Sanders Peirce. L'objectif ultime de notre étude reste la définition

باحث أكاديمي - جامعة محمد الأول بوجدة، المغرب

de la sémiotique étant donnée qu'elle est devenue une importante approche scientifique et qu'elle est une approche parmi les plus importantes.

Mots clés: sémiologie, sémiotique, Ferdinand de Saussure, Charles Sanders Peirce.

Abstract:

This study is only an introduction to this new / old science that is called semiotics or semiotics. We tried to follow his sources by comparing the efforts of two scientists, the Swiss Ferdinand de Saussure and the American Charles Sanders Peirce. The ultimate goal of our study remains the definition of semiotics given that it has become an important scientific approach and is an approach among the most important.

Key Words: sémiologie, sémiotique, Ferdinand de Saussure, Charles Sanders Peirce.

تمهيد:

شهدت بدايات القرن العشرين تحولات كبرى في الحقل المعرفي. ومن الممكن أن نصفها بالتحولات الجذرية والعميقة التي نشرت وعيا جديدا في مشهد الدراسات العلمية والأدبية. وقد ارتبطت هذه التحولات - في المقام الأول - باللسانيات والنظريات الأدبية والمناهج النقدية....

وفي خضم ذلك ظهر علم جديد أطلق عليه اسم " العلاماتية أو علم العلامات" وهو المصطلح الذي نتباه عربيا مقابل المصطلحين الرائجين (السيمولوجيا) و(السيميوطيقا).

كان وراء ميلاد العلاماتية أو علم العلامات عالمان كبيران: الأول سويسري هو عالم اللغة فرديناند دوسوسير الذي طبع "علوم اللسان" بطابعه الخاص وأثر على عدة حقول وأكوان معرفية، يكفي أن نذكر اسمه ليتحول تفكيرنا إلى مجالي "اللسانيات" و"البنوية" وإلى كتابه "محاضرات في علم اللغة العام" 1 "Cours de linguistique générale"، وحق أن يكون أبا لللسانيات والبنوية. أما العالم الآخر فهو الأمريكي شارل ساندريس بيرس الذي حقق نجاحات باهرة لا يمكن تصورها في الحقول الفلسفية والعلمية والفلكية والفيزيائية والرياضية (نسبة إلى الرياضيات)، وبالدرجة الأولى في حقول المنطق، والرياضيات وعلم الفلك وعلوم الأرض وهلم جرا... وضعها في كتابه الضخم "الأعمال الكاملة" "Collected Papers" 2 وفي كتاب ثان بعنوان "كتابات حول العلامة" "Écrits sur le signe" 3.

مع هذين الأقتنومين والعلمين، وفي كنفهما، نشأت " العلاماتية أو علم العلامات"، علما قائم الذات يبحث في العلامات والرموز والأشكال والصور، ومنهجيا يستكشف "تكون المعنى" في النص، وطريقة في البحث عن الميكانيزمات الثابتة في قلب النصوص (كيفما كانت الدعائم التي تشيد عليها/ وهما). وقد حاول كل من سوسير وبيرس، وهما الغريبان الواحد عن الآخر، والمقيمان في صفتين متوازيتين مقطوعي الصلة، أن يطورا دراستهما وتحليلاتهما إلى أن بلغا بهذه الدراسات والتحليلات مبلغا كبيرا من التطور والنضج. فكان لسوسير نظريته التي ضمنها كتابه

"محاضرات في علم اللغة العام"، وكان للثاني نظريته أيضا التي ضمنها في "أعماله الكاملة" التي تضمنت أبحاثه ومراسلاته.

لقد ذهبت العلاماتية أو علم العلامات – منذ إيجادها من قبل دو سوسير وبيرس- في اتجاهات شتى، متخذة من العلامة اللغوية وغير اللغوية موضوعا لها أو رائزا من روائزها، حتى رست على مبدأ لها، وهو المبدأ الذي اتخذ من مصطلح "التدليل" أو "السيميز" أساسه، والذي يقصد من ورائه تحقق «الفعل السيميائي» الذي يهدف إلى البحث في «السيرورة المؤدية إلى إنتاج الدلالة» أو «انبثاق المعنى» في النص اللغوي وغير اللغوي (الصورة).

وجدير بنا أن نبحت في هذا الكون المعرفي للعلاماتية أو علم العلامات. وأن نبحت عن أصوله القديمة والجديدة.

1- العلاماتية أو علم العلامات والتراث العربي:

لم يخل التراث العربي مما نعتبره بذورا أو آثارا للعلاماتية أو علم العلامات ، غير أن الأبحاث في هذا المجال تبقى شحيحة وغير ذات مصداقية عالية. لكن ما تجدر الإشارة إليه أن معاني جذر الكلمة "سيمياء" و"سيماء" وجدت في القرآن الكريم. من ذلك أنها ورت في آيات منه. نذكر منها:

"سيماهم في وجوههم من أثر السجود" (الفتح:29).

"يعرف المجرمون بسيماهم" (الرحمن 41).

"ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم" (الأعراف 48).

ولعلنا نلاحظ العلاقة بين الكلمة القرآنية والكلمة التي صيغت قديما لدى اليونان. السيمياء/ «سيماهم في وجوههم»/ الاسم/ التسمية/ ... = علاقة الاسم بالجذر الإغريقي "سيميون" "séméion"

من ناحية ثانية، فقد شاع عند العرب القدامى: لغويين وأصوليين وفلاسفة وفقهاء لغة مثل هذه النظرة الموجودة عند الغربيين بصدد العلامة. ومن هؤلاء: الغزالي: الذي ذهب إلى القول "إن الأشياء لها وجود في العيان ووجود في الأذهان ووجود في اللسان" 4. ثم ابن سينا: الذي ذهب إلى القول: "ومعنى اللفظ أن يكون، إذا ارتسم في الخيال مسموع اسم، ارتسم في النفس معنى، فتعرف النفس أن هذا المسموع لهذا المفهوم، فكلما أورده الحس على النفس التفتت إلى معناه" 5 .

ولا شك أن وجود مثل هذه المعاني التي نجدها في التراث العربي القديم تدل دلالة واضحة على إمكانية ورود المعنى عندهم، لكن ذلك ليس دليلاً على معرفتهم بهذا الحقل. ومعنى ذلك أن الأصول الأولى ربما كانت سابقة على ذلك، والذي أكدته دراسات السيميائيين هو أن هذه الأصول الأولى للعلاماتية أو علم العلامات وجدت عند الإغريق: فالكلمة المستعملة حديثاً "السيمولوجيا/ والسيميوطيقا" هي كلمة مشتقة من لفظة "سيميون" "sémeion" الإغريقية التي تعني "العلامة".

غير أن هذه الكلمة "السيميون" كانت تطلق على تخصص طبي يهدف إلى وصف العلامات التي من خلالها تتمظهر مختلف الأمراض (السيمولوجيا أو السامبتوماتولوجيا).

في فترة لاحقة ستنقل الكلمة نفسها إلى القديس أوغسطين Saint Augustin (354-430) الذي سيوظفها في مجال اللغة قصد توضيح مفاهيم العقيدة المسيحية.

ثم مع تطور العصور وبلوغ القرن السابع عشر وبداية النهضة الغربية، كان الفيلسوف الإنجليزي جون لوك John Locke (1632-1704) هو أول من استعمل مفهوم/ومصطلح السيميوطيقا (sémiotikè) بمعنى «المعرفة المتعلقة بالعلامات».

هكذا تطور مفهوم الكلمة إلى أن وصل في البدايات المبكرة للقرن العشرين إلى دوسوسير وبيرس، فأصبحت السيميولوجيا/أو السيميوطيقا عبارة عن ثورة بالمعنى الحقيقي، بتشكيلها للبيئة الأساسية في دراسة العلامات والكيفية التي ينتج بها المعنى.

2- ثلاث قصص وصورتان من أجل توضيح العلاماتية أو علم العلامات:

لأجل أن نوضح ما المقصود من العلاماتية أو علم العلامات ، نريد أن نقوم بهذا التمرين الأولي والمبسط، وذلك من خلال ثلاث قصص اخترناها، لتكون عينة يقوم عليها تحليلنا بغرض فهم المنهجية التي يتأسس عليها التحليل السيميائي. وفي البدء يجب أن نقول إن الغرض من المنهج السيميائي هو تحقيق ما يسميه السيميائيون "الفعل السيميائي"، وهذا الأخير يهدف من بين ما يهدف إليه –كما أشرنا في صدر المقال- إلى البحث في «السيرورة المؤدية إلى إنتاج الدلالة» أو «انبثاق المعنى» في النص اللغوي وغير اللغوي (الصورة).

3-1- قصة ماركو بولو مع وحيد القرن:

في كتاب للفيلسوف والسيميائي الإيطالي أمبرطو إيكو عن الفيلسوف إيمانويل كانط (U. Eco, Kant et l'ornithorynque, 1999) ، يورد إيكو قصة استقاها من الفيلسوف "كانط"، وهي أن هذا الأخير (ويعني كانط) تحدث في بعض كتبه عن حدث يتلخص في المرة الأولى التي رأى فيها المستكشف ماركو بولو – وهو يطأ بقدميه بلاد سومطرة- ذاك الحيوان الضخم ذي القرن الوحيد. لقد ظن مارك بولو –كما يقول كانط- أن عينيه وقعتا على حيوان العنقاء الأسطوري الذي لم يره أحد قط، والموجود فقط في الأساطير، إلا أن هذا الحيوان لم يكن إلا وحيد القرن، وهو حيوان معروف في بلاد سومطرة والبلدان المجاورة لها. لنقل إن المستكشف – ماركو بولو- كان يحاول أن يعطي معنى إلى ما شاهده في اللحظة ذاتها (أي هذا الحيوان)، فكان من الضروري أن يستدعي معلومات ومحتويات معرفية يخزنها في ذاكرته. ولذلك كان الاسم الذي يمكن أن يقابل به هذا الحيوان هو العنقاء.

2-3- قصة رؤية القطة:

القصة الثانية هي قصة عادية تحدث للكثير من الناس، وملخصها أنه إذا صادفت أن لاحظت ليلا - وأنت تسير في زقاق مظلم - وجود شيء غامض وتساءلت : ما هذا؟ (بإمكانك أيضا أن تقول "على ماذا يدل هذا الشيء؟") فالاستعمال اللساني يشير في هذا المقام إلى هواجس فلسفية، ستركز حينها اهتمامك، أي: تنسق بين المميزات، وتحاول استحضار بعض الخطاطات التي توفرها لك التجارب التي مررت بها في السابق (أي أن تضع أمام النموذج الدلالي مجموعة من المميزات الغامضة)، وتشكل حقلا إدراكيا ممكنا. ثم تخلص أخيرا إلى القول: لقد فهمت الآن: إن الأمر يتعلق بقطة. إنها قطة قابضة في الظلام. إن النتيجة التي توصلت إليها هي نتيجة منطقية، فأن على علم بهذا الحيوان، ثم إن لديك خبرة ثقافية مكنتك من إعطاء النتيجة، لكن، لو كان الأمر يتعلق بحيوان غريب لم يسبق لك أن رأيته (وتجهله الثقافة التي كبرت في أحضانها)، فإنك لن تعرف عليه.

3-3- قصة الرجل والحافلة:

القصة الثالثة التي نوردتها تتعلق بمشهد يحتاج هو الآخر إلى "ثقافة" تمكن الرائي من تفسيره. نفترض أنك وأنت تسير إلى مكان ما، رأيت رجلا يقف على قارعة الطريق، ما تدركه هو وجود كيانين: الشخص والطريق. لكن أنت لا ترى ما هي العلاقة بينهما، ثم لا تعرف أي تفسير يمكن لك أن تعطيه لهذا المشهد؟ إن ما تحتاج إليه هو تحديد العلاقة بين الرجل والطريق، وكل هذا في حد ذاته لا يتم إلا عبر إبداع تأويلي، وفوق ذلك يحتاج إلى وجود إطار ثقافي لن تكون في غنى عنه لإيجاد التحديد الصحيح. ونفترض أن: حاولت أن تحول هذا المشهد المرئي إلى خطاب منطوق أو مكتوب، ستقول إذن: "إنه رجل ينتظر الحافلة"، فإنك تتصور بلورة ذهنية مرتبطة بكل العناصر التي تعد شرطا من شروط الإرسالية.

4-3- علامة الصورة:

سيمياءات

في القصص السابقة حاولت أن أقدم تصورا حول كيفية "انبثاق المعنى"، وهو التصور السيميائي، وانطلاقا من المعرفة البسيطة التي أفدنا منها، نحاول الآن أن نقوم بنفس التجربة، لكن هذه المرة من خلال التطبيق على "الصورة".

مثال أول: صورة أثر حذاء:



- سنحاول فحص هذه الصورة وهي أثر قدم على الأرض: نستطيع القول إنها صورة أثر لشخص مر من هنا....

- يتعلق الأمر بظاهرة محددة مكانيا، شكلها يشبه القدم، (أيقون). مباشرة ونحن نلقي النظرة الأولى على الصورة، يبدأ التأويل.

- نأخذ بعين الاعتبار الماضي وسياق الإنتاج،

سيميائيات

- فهذا الأثر من شخص مر من هنا قبل مدة، تأويلنا سيجعلنا نقيم العلاقة بين شيئين ملموسين : هذا الأثر والقدم التي أحدثت هذا الأثر.

لو كان الأمر يتعلق بنا سيقف تحليلنا في هذا المكان، أما إذا تعلق الأمر بمحقق فإن ما سيمه زيادة علينا هو معرفة المكان الذي يوجد فيه الشخص صاحب الأثر.

مثال ثان: قراءة صورة شخص:



لا أريد أن أحلل هذه الصورة، ولكن أريد فقط أن أبين أهمية النموذج السيميولساني في التحليل السيميائي الذي يهدف إلى بناء المعنى الشامل للرسالة (الصورة هنا)، وما أراه هو شيخ مسن أظنه يمشي إلى غرض ما، واقعة مليئة بالإحباطات. سيكون علي أن آخذ بعين الاعتبار مكونين اثنين: مظهر شكلي ومظهر له علاقة بمضمون الصورة، وهما هنا زاوية

سيمياءيات

التقاط الصورة (نسميه التأطير) وطريقة لباس الشيخ وهيئته وملامحه... فالتأطير وشكل اللباس يحيلان على أنساق ثقافية. فالمكون الأول يحيل إلى ظواهر لغوية متعلقة بوسائل التقاط الصورة (التصوير) أما المكون الثاني فيحيل إلى متعلقات بالحياة الاجتماعية (شفرات اجتماعية).

استنتاج من الأمثلة السابقة:

إن الفعل المتحقق من خلال القصص الثلاث والصورتين، هو «فعل سيميائي». بمعنى أنه يتغى البحث في «السيرورة المؤدية إلى إنتاج الدلالة» أو «انبثاق المعنى» في النص اللغوي وغير اللغوي (الصورة). وهذا ما يسميه بورس «السيميز»، أي «السيرورة المؤدية إلى إنتاج الدلالة».

وما قام به "ماركو بولو" في القصة الأولى هو فعل سيميائي بامتياز، لكن "ماركو بولو" لم تتحقق له معرفة المخلوق المائل أمامه، لأنه لم يكن قد رآه في حياته من قبل. نقول إن ما كان يعوز ماركو بولو هو ما نسميه «الترميز الثقافي»، وهو العنصر الكفيل بمداه بالقدرة على الوصول إلى انتقاء «اللفظة» التي تطابق هذا الحيوان.

ما قمت به أنا أو قمت به أنت من فعل- في التجربتين الثانية والثالثة وفي صورتين أيضاً، هو «فعل سيميائي» بامتياز، إذ قمت/وقمت بعملية إدراك، تلتها عملية تسمية للشيء.

الثابت أن هذا الفعل «السيمائي» «أو السيرورة المؤدية إلى إنتاج الدلالة» ليس معطى خالص، أو مجرد شيء يضاف إلى شيء، بل هو "سيرورة مركبة" تسلك المسار التالي:

مرجع (واقعي أو متخيل) — << مفهمة (تمثيل) — >> انتقاء علامة (تطابق نسبي).

سيمياءيات

إذن، وأنا أقرأ، فإنني أقوم بعمليتين: الأولى تستند إلى قدرة الذات المتكلمة على تمثيل المرجع وترتكز على (الإدراك- المفهمة). أما الثانية فتكمن في البحث عن مستوى التطابق المنشود وهنا تحدث (التسمية).

إذن، فالعلامة (المكونة من ممثل وموضوع ومؤول) ليست سوى الوجه المرئي لـ «سيرورة غير مرئية» نسميها «السيرورة التدليلية»، داخلها يختفي فعل الإدراك ذاته، والذات الإنسانية تحتاج إلى هذه «السيرورة غير المرئية» لكي تحول الوقائع الموجودة في العالم الخارجي إلى مفاهيم تحل محل هذه الوقائع وتمنحها بعدها السميائي.

ولهذا، فإن «السيرورة التدليلية» (أو السيموز) تشتغل هي الأخرى باعتبارها استعادة للمقولات الإدراكية التي يطلق عليها بيرس «المقولات الفينومينولوجية» (أو الفانيريونية). وهذه المقولات هي التي تستند إليها الذات من أجل إدراك نفسها وإدراك العالم المحيط بها. فكل ما يجربه الإنسان وكل ما يؤثث كونه يدرك باعتباره تداخلا لمستويات ثلاثة : أول يحيل على ثان عبر ثالث ضمن سيرورة لامتناهية. فالأول وحده لا يشكل سوى أحاسيس ونوعيات مفصولة عن السياقات المخصصة، أما الثاني فيحيل على الوجود الفعلي، إنه يحيل على الواقعة المادية كما هي بوصفها تستوعب الأحاسيس والنوعيات من حيث كونها توفر الأسس المادية التي تتجسد فيها المعطيات الموصوفة في الأول. أما الثالث فهو الذي يبرر العلاقة بين الأول والثاني، وهو الذي يحول التجربة إلى واقعة فكرية، وبدونه لا يمكن لهذه الوقائع أن تدرك استقبالا. فالعين لا تلتقط موضوعات مادة، بل تحتفظ بنسخة ثقافية منها.

3- إذن... ما هي العلاماتية أو علم العلامات؟

نخلص من كل هذا إلى وضع السؤال التالي: ما العلاماتية أو علم العلامات ؟
والجواب هو أن العلاماتية أو علم العلامات مجال متعدد الوجوه:

- فهي «علم» يهدف إلى فهم «سيرورات إنتاج الدلالات» ضمن منظور "سانكروني".

سيمياءيات

- وهي بحث في المعنى لا من حيث أصوله وجوهره، بل من حيث انبثاقه عن عمليات بناء نصوص شتى، أي بحث في أصول «السميوز» وأنماط وجودها.
- وهي في مستواها الأرقى (أو الأعلى) تأخذ طابعا هو طابع عابر للتخصصات transdisciplinaire، وذلك على اعتبار أن مجالها يتعلق بفهم الظواهر المتعلقة بإنتاج المعنى في أبعاده المعرفية والاجتماعية والتواصلية.
- وهي تقدم نفسها كمجال للبحث أكثر من كونها مادة أو تخصصا في ذاتها تمتلك منهجية موحدة وموضوعا محددا.
- وهي تتحدد بطريقتها أكثر مما تتحدد بموضوعها، ذلك لأن أي موضوع أو حدث أو ظاهرة يمكن النظر إليه بوصفه "تمثيلا دالا configuration signifiante"، وفق المنظور السيميائي.

4- تنوع المقاربات العلاماتية:

من هنا نستطيع أن نؤكد أن العلاماتية أو علم العلامات هي مفرد في صيغة الجمع، أو هي عبارة عن اتجاهات ومناحي ومقاربات مختلفة ومتعددة للنص المكتوب أو المرئي، اللغوي أو غير اللغوي.

ولعلنا في المقام الأول نرى أن مختلف المقاربات العلاماتية يتم ربطها بقطبين/أو منظورين كبيرين هما:

- المنظور المعرفي، حيث تعتبر العلاماتية أو علم العلامات دراسة لسيروية الدلالة، ويتعلق الأمر بالأخص بالفلسفة والعلوم المعرفية وعلوم اللسان.
- المنظور السوسيوثقافي، حيث تعتبر العلاماتية أو علم العلامات دراسة لسيروية التواصل، وهذا المجال موضوعه دراسة الثقافة بصفتها تواصلا، ويتعلق الأمر هنا بدراسة مجالات علوم الاتصال والتواصل والأنثروبولوجيا والسوسيولوجيا والدراسات الأدبية.

سيمائيات

وهي بذلك تنقسم إلى ثلاثة مستويات كبرى:

- الأول هو مستوى "السيمائيات العامة"، والهدف منها بناء موضوعها النظري وتطوير نماذجها.
- أما الثاني فهو مستوى "السيمائيات الخاصة"، وتهدف إلى دراسة الأنساق التعبيرية والتواصلية الرمزية.
- والثالث هو مستوى "السيمائيات التطبيقية"، والهدف منها تطبيق النموذج السيميائي بتوظيف مفاهيمها.

على مستوى آخر، تتوزع السيمائيات جغرافيا إلى اتجاهين اثنين، هما: الاتجاه الأمريكي المتميز بلونه واتصاله بعلم "المنطق"، والذي يمثله الأمريكي شارل ساندرس بيرس، والاتجاه الأوروبي الذي يتأسس في المقام الأول على اللغة، والذي يمثله السويسري فردناند دو سوسير.

1-5- الاتجاه الأمريكي:

أما الاتجاه الأمريكي فمن مميزاته أنه إبيستيمولوجيا ينطلق من مدخل فلسفي ورياضي، ولعل اختصاص بيرس واهتماماته المعرفية والنظرية المتنوعة وتوجهاته العلمية، خاصة بالنسبة لكونه اشتغل كثيرا بالفلسفة والعلوم الرياضية والمنطق والفلك، هو ما أتاح له أن ينظر إلى مبحث "العلامة" بمثل النظرة التي سجلها في مؤلفاته.

1-1-5- اتجاه شارل ساندرس بيرس:

ولذلك، كانت السيويوطيقا بالنسبة لبيرس (1839-1914) هي الاسم الآخر للمنطق: أي هي "النظرية الشكلية للعلامات". ويمكن القول اختزالا إن مشروعه كان مزدوجا ويطمح إلى القيام بالوصف الشكلي لميكانيزمات إنتاج المعنى وإلى إقامة تصنيف للعلامات.

سيمياءيات

لم يكتب الفيلسوف كتابا خاصا حول هذا الموضوع، فأفكاره جاءت في عدد من النصوص (مقالات، رسائل، محاضرات) كتبت في فترات متعددة متباعدة (منذ 1867) ولم تجمع وتُنشر إلا بعد موته ، انطلاقا من 1931.

ولا شك أن بيرس كان يربط السيميوطيقا بمجال المنطق الذي ساهم بيرس في تطويره. ومن هذا المنظور فالسيميوطيقا بالنسبة إليه هي «النظرية العامة للعلامات» ولاستعمال الانسان لها.

حسب بيرس، السيميائية هي «فلسفة التمثيل» une philosophie de la représentation. فقد قال من بين ما قال:

"(....) أنا كما أعرف، رائد أو مهيء غابات، مهمته فتح الطرق فيما أسميه السيميوطيقا، أي النظرية المتعلقة بالطبيعة الجوهرية والاختلافات الأساسية للسيميوز(ات) (سيرورة العلامة) الممكنة (...)"⁶.

يرى بيرس أيضا أن العلامة هي عنصر من «سيرورة عملية التواصل»، و«التواصل» المقصود هنا، ليس معناه نقل الشيء «transmettre» وإنما معناه «ربط العلاقة» «mettre en relation» المأخوذ من اللاتينية communicare (أي تواصل).

ثم يقول بيرس أيضا: «أفهم من العلامة كل ما يوصل (أو يربط) مفهوما محددا مع موضوع بأي طريقة كانت»⁷

2-1-5- شارل موريس :

حاول شارل موريس Charles Morris (المنطقي والفيلسوف الأمريكي) أن يخلف بيرس، وأن يطور أبحاثه، والسيميائية بالنسبة إليه، هي في نفس الوقت علم من بين علوم أخرى (هي علم العلامات) ووسيلة لهذه العلوم، ذلك أن ما تدرسه العلوم التجريبية والإنسانية

سيمياءات

هي الظواهر الدالة، أي العلامات. ومن هنا فإن موريس يرى أن السيمياءات هي «ميتا-علم» (أو علم ثان) métascience حقلها البحثي هو دراسة العلم عن طريق دراسة لغة العلم.

2-5- الاتجاه الأوروبي أو اتجاه فردناد دو سوسير (فرنسا):

ارتبطت "السيمياءات" بالعالم اللغوي السويسري فردناد دو سوسير (1857-1913) الذي حدد حقلها الممكن في بداية القرن العشرين في "محاضرات في علم اللغة العام" : Cours de linguistique générale

"إن اللغة نظام من الدلائل يعبر عما للإنسان من أفكار، وهي في هذا شبيهة بالكتابة وبألفبائية الصم والبكم، وبالطقوس الرمزية وصور آداب السلوك وبالإشارات الحربية وغيرها، إلا أن اللغة أهم هذه الأنظمة جميعها.

وإذن فإنه من الممكن أن نتصور علما يدرس حياة الدلائل في صلب الحياة الاجتماعية. وقد يكون قسما من علم النفس الاجتماعي وبالتالي قسما من علم النفس العام. ونقترح تسميته ب، semiologie أي علم الدلائل وهي كلمة مشتقة من اليونانية semeion بمعنى دليل. ولعله سيمكننا من أن نعرف مم تتكون الدلائل والقوانين التي تسيروها. ولما كان هذا العلم غير موجود بعد فإنه لا يمكن أن نتنبأ بما سيكون. ولكن يحق له أن يوجد، ومكانه محدد سلفا. وليست الألسنية سوى قسم من هذا العلم العام. والقوانين التي سيكشف عنها علم الدلائل سيكون تطبيقها على الألسنية ممكنا"8.

ومما جاء في الطبعة الأصلية لكتاب دو سوسير ما يلي:

"On peut donc concevoir une science qui étudie la vie des signes au sein de la vie sociale ; elle formerait une partie de la psychologie sociale, et par conséquent de la psychologie générale ; nous la nommerons sémiologie² (du grec sEmeîon, « signe »). Elle nous apprendrait en quoi consistent les signes, quelles lois les régissent.

Puisqu'elle n'existe pas encore, on ne peut dire ce qu'elle sera ; mais elle a droit à l'existence, sa place est déterminée d'avance. La linguistique n'est qu'une partie de cette science générale, les lois que découvrira la sémiologie seront applicables à la linguistique » 9

1-2-5- فردناند دو سوسير:

رأى فردناند دو سوسير أن اللغة تكون "نسقا" أو "نظاما" Système مستقلا ومبنيًا يتكون من مجموعة من العلاقات يمكن وصفها تجريديًا، وأن عناصرها ليس لها أي وجود خارج علاقة هذه العناصر مع "المجموع" la totalité.

في حقل اللسانيات، قطع فردناند دو سوسير كليًا مع التقليد "الدياكروني" لدراسة اللغة لكي ينظر إليها سنكرونيا بوصفها نظامًا أو نسقا. وفرق بين اللغة (النموذج) والكلام (الظاهرة). ورأى أن اللغة هي مجموعة من الاتفاقات يستعملها المتحدث من أجل التواصل مع الآخرين عن طريق الكلام.

وهو يدرس اللغة أقام دو سوسير صروح منهجية "بنوية" سيشرع في تطبيقها - عقب ذلك- على مختلف أنواع الظواهر الثقافية والاجتماعية.

بعد دو سوسير جاء ورثته الذين انقسموا إلى فريقين:

- الأول اتجاه ضيق من مجال السيميائيات restrictive ويعمل تحت اسم " سيميائيات التواصل"، ويدرس بعض الظواهر الثقافية.
- الثاني وسع من مجالها extensive يهدف إلى وصف وإبراز الظواهر المتعلقة بانتقال المعلومة داخل المجتمعات الإنسانية. ويظهر أن هذا الاتجاه الثاني، المرن والذي يأخذ بعين الاعتبار الأنظمة الاتفاقية التأويلية المفتوحة، هو أكثر فعالية ونجاعة في دراسة ظواهر التواصل المعقدة في حقل التواصل العام.

ويعتبر رولان بارط أحد ممثلي هذا الاتجاه بامتياز.

2-2-5- رولان بارط:

عرفت العلاماتية تحت تأثير رولان بارط (1915-1980) تطورا هائلا بدءا من منتصف الستينيات، وخاصة في مجال النقد. كما أن الأبحاث السيميائية في السينما خاصة عرفت تقدما منقطع النظير مع أعمال كريستيان ميتز. وقد عرف رولان بارط مبكرا أهمية دراسة وسائل الاتصال الجماهيرية.

وقد طور أبحاثه في اتجاهين: ففي نهاية الخمسينيات قدم تحليلا نقديا حول الثقافة الشعبية (ينظر كتابه ميثولوجيات les Mythologies) معتبرا أن التمثيلات الجماعية هي داخل الممارسات الاجتماعية أنظمة دالة. درس أيضا ما اصطلح عليه ب(الموضوعة) بوصفه نظاما وذلك انطلاقا من النصوص المنشورة في الصحف. وفي عام 1964 ظهر عدد هام من مجلة (تواصلات Communications) ليساهم في نشر فائدة الدراسات السيميائية.

في افتتاحيته كتب رولان بارط وهو ينطلق من مشروع سوسير:

« موضوع السيميائية هو كل نظام من العلامات مهما كانت مادتها، ومهما كانت حدودها. فالصور، والحركات، والنوتات الموسيقية، والأشياء وكل ما يمكن اعتباره معقدا والذي نجده في العادات والسلوكيات أو المشاهدات، إذا لم تكن تشكل لغات فهي على شكل أنظمة دالة» 10

لقد قام رولان بارط بتشغيل البرنامج الذي لم يضع بيرس إلا مبدأه، واضعا نفسه بوصفه وريثا ومكملا لعمل سوسير. وهكذا اتخذت العلاماتية -وفق هذه النظرة - صفة العلم الذي يهدف إلى فهم الطريقة التي وفقها تتشكل الدلالة la signification. مثل هذا الحقل يهم كل الإنتاجات الاجتماعية (المنتجات الاستهلاكية، الموضوعة، الطقوس، الخ.)، وبشكل خاص تلك

سيمياءات

المنتوجات التي تتيح توصيلها أنظمة التواصل الجماهيري. ووفق هذا المنظور فالإنسان له موقع داخل محيطه الاجتماعي، ولا يشكل مجرد مرسل أو متلق منقطع عن العالم.

إن المنهجية التي تقدمها أبحاث بارط والتي أسماها البعض "سيمياءات الدلالة" تتجاوز بكثير تلك المقاربة التي تجسدها أبحاث إيرك بويسنس E. Buyssens وج. مونا G. Mounin ول. ج. برييطو L.-J. Prieto والمسماة "سيمياءات التواصل sémiologie de la communication". وبالفعل، فهؤلاء يقصرون دراساتهم على الظواهر التي لها علاقة ب "التواصل" الذي يتم تعريفه من قبلهم بوصفه صيرورة لإرسال معلومات بواسطة نظام واضح من الاتفاقات (أي شفرة un code)، مثل: قانون السير....

تعريف العلامة:

العلامة — كيفما كانت طبيعتها - تعني "كل مركب يمتلك دلالة ما": toute configuration qui signifie. هذه العلامة يمكن أن تكون مكونا من "سيرورة تواصل" Signification أو "دلالة" Processus de communication.

في الحالة الأولى، تكون العلامة عبارة عن كيان غايته نقل معلومة عن قصدية من مرسل إلى مرسل إليه. (خطاطة جاكبسون المعروفة).

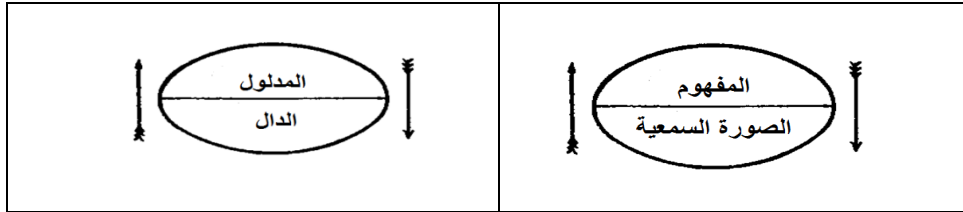
وفي الحالة الثانية، تكون العلامة منظورا إليها من خلال الآثار المترتبة عنها بوصفها تشكل كيانا دالا داخل سياق الاستعمال. ويمكن أن نسي هذه السيرورة (السيرورة التي يمتثلها يشغل شيء ما كعلامة بالنسبة لشخص ما) (سيميز أو دلالة).

بهذا المعنى فإن كل ما يخضع للتأويل يمكن أن يشكل علامة: وكما قال شارل موريس ف«إن الشيء هو علامة فقط لكونه يقبل التأويل كعلامة عن شيء بالنسبة للمؤول»

سيميائيات

1-6 - العلامة عند دو سوسير:

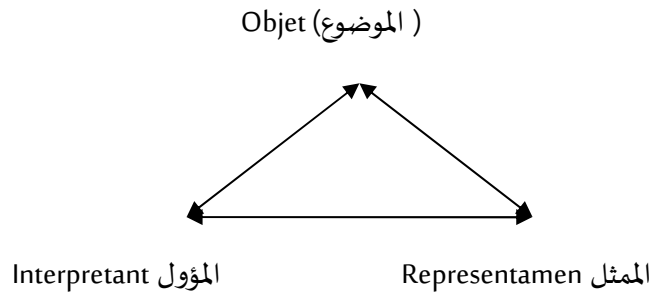
العلامة اللغوية - عند دو سوسير - كيان مزدوج. وتشكل العلامات اللغوية مجموعا لا يقبل التجزئ مكوّنا من أصوات ومعان، أي من دوال (وقائع مادية، صوتية أو مرئية) ومدلولات (مفهوم ودلالة الكلمة). وهي تجمع بين مكونين هما: الدال والمدلول، أي المفهوم والصورة السمعية.

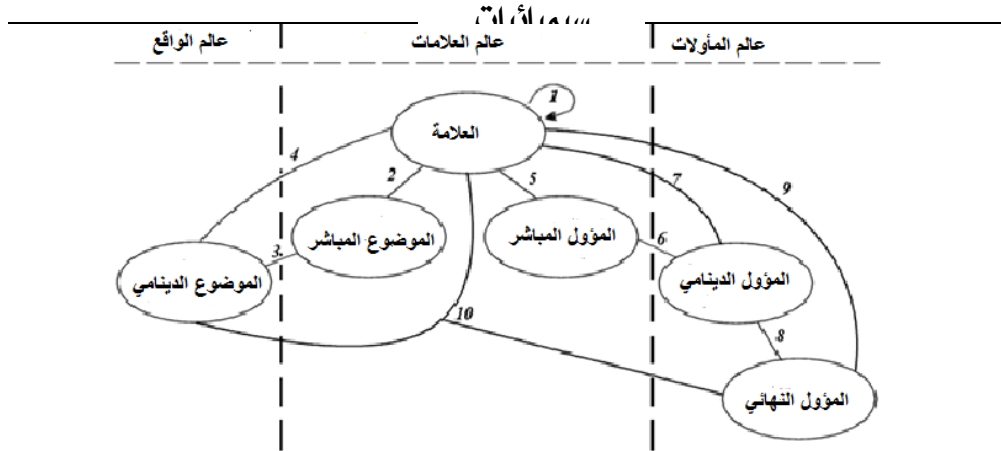


2-6 - العلامة عند بورس:

ويقدم لنا بيرس تعريفه للعلامة، وهو التالي: «العلامة هي شيء ما يحل (أو يوضع) مكان شيء ما بالنسبة لشخص ما .. تحت أي ذريعة أو أي عنوان» (شارل سندرس بورس 12 ويضيف: " أفهم من العلامة كل ما يوصل إلينا مفهوما يحدد موضوعا بأية طريقة"

وهكذا نلاحظ وجود ثلاثة محافل ومكونات مختلفة كلها تشترك في تكوين العلامة عند بيرس، وهي: مكونات الموضوع، والممثل والمؤول.





العلامة إذن هي علامة ثلاثية، وكل علامة تتكون من ثلاث علامات فرعية هي علامات "الموضوع" و"الممثل" و"المؤول"، وذلك كما يشير الجدول السابق.

ومن هنا يمكن الحديث عن علامات وهي في تحول متواصل. تبدأ بمستوى العلامات في الواقع (الموضوع) فمستوى العلامات بذاتها (العلامات المكتوبة أو المنطوقة أو المرئية) ثم بمستوى العلامة المؤول (وهي العلامة التي تحدث في الذهن). إضافة إلى العلامات الفرعية تسلك مسلكا من ثلاث مراحل، العلامة في وضعها المباشر، فالعلامة في وضعها الدينامي، ثم العلامة في وضعها النهائي.

إن العلامة إذن وهي تسلك هذا المسلك، تنتج ما نسميه بالدلالات. وهذا ما يمثله الجدول التالي:

3-6- العلامة بين دو سوسير وبيرس:

وفي النتيجة، يمكن لنا للتمييز بين تعريف دو سوسير للعلامة وتعريف بيرس أن نرسم الرسم التالي:

5- العلامة و«التسنيين الثقافي»:

كما سبقت الإشارة، فإن ما هو مهم في السيمياءيات هو الطريقة التي تسعى من خلالها إلى إبراز الدلالة، ولا شك أن هذه الطريقة إنما تتحقق عن طريق ما يسميه السيميائيون "الفعل السيميائي"، هذا الفعل الذي ينظر إلى العلامة ويقوم بتحليلها وتأويلها عبر فعل آخر يسميه السيميائيون أيضا "التسنيين الثقافي". ويتحقق "الفعل السيميائي" عبر المحافل التالية:

1- القارئ ،

2- النص،

3- النص الثقافي العام (أو النص الكبير للثقافة)،

4- علاقة القارئ بالنص،

5- التأويل.

على أن اشتراك هذه المحافل في الفعل السيميائي هي التي تحقق "التدليل" أو "السيموز" حسب تعبير بيرس نفسه الذي هو الأس الذي تقوم عليه العلاماتية.

6- دور «التدليل أو السيميز» في الفعل السيميائي:
1-8- مفهوم التدليل (أو السيميز):

مفهوم التدليل (أو السيميز) مفهوم مركزي في تفكير بورس السيميائي، وهو الموضوع الرئيس للسميائيات. وقد تحدث عنه في «الأعمال الكاملة» Collected Papers. والمصطلح إغريقي sèmeiôsis، ويعني «عملية التدليل» action de signifier.

مفهوم التدليل أو السيميز يعني «السيرورة المؤدية إلى إنتاج الدلالة»، أو هو الفعل المؤدي إلى إنتاج الدلالات وتداولها، إنه سيرورة يشتغل من خلالها "شيء ما" باعتباره "علامة". فالكلمة أو الشيء أو الواقعة ليست كذلك إلا في حدود إحالتها على سيرورة، فلا شيء يمكن أن يدل من تلقاء ذاته ضمن وجود أحادي في الحدود والأبعاد.

ويجب الإشارة إلى أن فردناند دو سوسير وشارل سندررس بورس كلاهما نظر إلى الدلالة باعتبارها «سيرورة في الوجود والاشتغال والتداول».

سيرورة السيميز (أو الوظيفة السيميائية في اصطلاح لويس هاملستيف) تشتغل باعتبارها بداية وغاية لكل فعل سيميائي.

من هنا نفهم أن التدليل من حيث الطبيعة والجوهر هو واحد، إلا أنه في الاشتغال والتحقق، يختلف باختلاف الوقائع النصبة. فمكونات كل واقعة تقود إلى تحديد نوعية التدليل وطريقة اشتغاله. فللسرد قواعده وللشعر قواعده أيضا، كما أن للمسرح والسينما والصورة قواعد تستند إليها هذه الأشكال التعبيرية من أجل إنتاج دلالاتها.

وتركز العلاماتية على طبيعة التدليل لا على المادة التي تشكل سندا للدلالة. فكل شيء يمكن أن يعزل وينظر إليه باعتباره كيانا مستقلا بذاته، ويمتلك سياقاته الخاصة، وباعتباره قادرا، استنادا إلى عناصر الثقافة، على إنتاج معانيه. فالمعنى المرئي لا قيمة له، أو هو هنا فقط لكي يدشن سيرورة لا تعطي نفسها بسهولة.

سيمائيات

ولعل أوغستو بوزيو هو أول من وقف على أخذ الدراسات الحديثة بمفهوم التدليل كما جاء به بيرس. كما أنه أوجد -خاصة- علاقة عميقة بين مفهوم "التدليل" عند بيرس ومفهومي "الحوارية" و"البوليفونية" عند ميخائيل باختين. فمفهوما الحوارية والبوليفونية قائمان على سيميوز بيرس.

وعلى نهج أوغستو بوزيو أقام جاكبسون شعرته على سيميوز بيرس، وقامت جوليا كريستيفا من جهتها بصياغة مفهوم "التناس" بناء على "حوارية" باختين و"سيميوز" بيرس. كما انطلق جاك دريدا من سيميوز بورس لبلورة مفاهيمه عن التفكيكية.

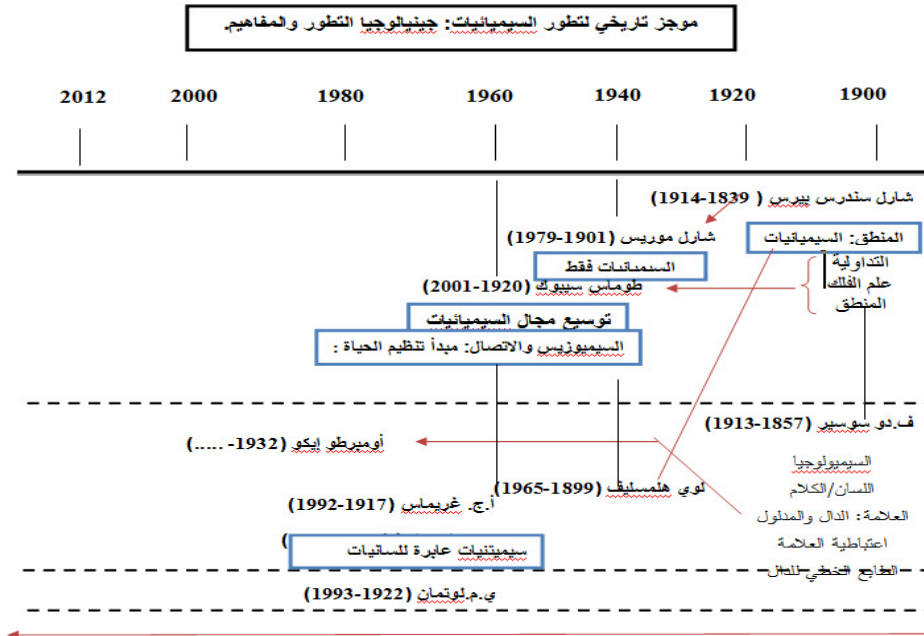
7- جينالوجيا العلاماتية:

يمكن القول إن الظهور الأول للسيميائيات يرجع إلى الفترة التي تغطي نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، وذلك بفضل أعمال السويسري فردناند دوسوسير والأمريكي شارل سندر بيرس في أمريكا.

ولذلك فقد سميت تسميات مختلفة: "سيمولوجيا" و"سيميوطيقا" و"سيمائيات" و"علم العلامات". ونحن عندما نتحدث عن الاتجاه الأوروبي والفرنسي بالتخصيص عند فردناند دوسوسير نستعمل لفظة "سيمولوجيا"، وعندما نتحدث عن الاتجاه الأمريكي عند شارل سندر بيرس، نستعمل السيميوطيقا، وضمن النطاق العربي نحن نستعمل العلاماتية أو السيميائيات.

سيميائيات

ومثلما تعددت التسميات والألفاظ والمصطلحات الدالة على هذا العلم، فقد تشعبت اتجاهاته وتعددت كما تنوعت التصورات التي أعطيت له من قبل مؤلفين عديدين، ولمعرفة كل هذه التحولات، سنقوم برصدها من خلال الجينياالوجيا التالية:



كما سبق لنا القول فإن فائدة العلاماتية أو علم العلامات جد كبيرة، لأنها:

- تمكن من فهم مختلف السلوكات الإنسانية من المنظور السانكروني (التزامني).
- تقدم بالخصوص، الوسائل النظرية والعملية التي تمكن من تحليل الخطابات التي تبثها وسائل الإعلام. وفي المقدمة، فإن الطرق والوسائل المتاحة داخل حقل العلاماتية أو علم العلامات تمكن من وصف وشرح طرق اشتغال النصوص (المكتوبة والمرئية والمسموعة) عن طريق تحيين صيغ تنظيمها المخفية، وتتيح معرفة الكيفية التي ينبثق بها المعنى..
- تعطي العلاماتية الإمكانية للباحث في أن يوضح كيف أن الدلالة العامة لخطاب ما التي تظهر في غالب الأحيان وكأنها دلالة من تحصيل حاصل تنتج في الحقيقة عن بناء يركز على تعالقات مكونات agencement de configurations signifiantes تمثيلات دالة تفترض الوجود الواعي لقارئ / مشاهد على عدة مستويات. ثم إن المقاربة العلاماتية تمكن من أن تكتشف الوسائل les procédés de persuasion التي تفترضها كل عملية خطابية.
- تكشف العلاماتية أو علم العلامات بنجاعة عن المقولات الجوهرية للغة (المكتوبة والسمعية والبصرية) وعن كيفية انبثاق المعنى. أضف إلى ذلك أن المنهجية العلاماتية لها القدرة الكبيرة في أن تجعل القارئ/المستمع/ المشاهد يأخذ مسافة حيال موضوعه ووسائل الإعلام وخطاباتها التي تنشرها ومن هنا قدرته على النقد.

هوامش البحث:

1. Ferdinand De Saussure, Cours de linguistique générale, Ed. Arbre d'Or, Genève août 2005,
2. C.S. Peirce, Collected Papers, Harvard University Press, 1960, trad. fr.
3. Écrits sur le signe, Seuil, 1978.
4. الغزالي : معيار العلم في المنطق، شرحه أحمد شمس الدين دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1990، ص 47
5. ابن سينا : الشفاء، المنطق ، 3 - العبارة، دارالكتاب العربي للطباعة والنشر، تحقيق محمود الخضري ص 4.
6. Charles Sanders PEIRCE, Ecrits sur le signe, Paris, Seuil, 1978, p. 135.
7. Charles Sanders PEIRCE, ibid., p. 116.
8. فردناند دو سوسير، دروس في الألسنية العامة، تعريب صالح القرمادي، محمد الشاوش، محمد عجيبة، الدار العربية للكتاب، ليبيا، 1985 ، ص 37.
9. Ferdinand De Saussure, Cours de linguistique générale, Ed. Arbre d'Or, Genève août 2005, p. 22.
10. Roland BARTHES, «Présentation», Communications, N° 4, 1964, p. 1.
11. Charles MORRIS, «Fondements de la théorie des signes», Langages, N° 35, 1974 (1938), p. 17.
12. Charles Sanders PEIRCE, ibid., p. 116 (vers 1903).

المصادر والمراجع:

- أبو حامد الغزالي: معيار العلم في المنطق، شرحه أحمد شمس الدين دار الكتب العلمية، بيروت، 1990.
- ابن سينا: الشفاء، المنطق، 3 - العبارة، دارالكتاب العربي للطباعة والنشر، تحقيق محمود الخضري د.ت.
- فردينان دي سوسير: دروس في الألسنية العامة، تعريب صالح القرمادي، محمد الشاوش، محمد عجينة، الدار العربية للكتاب، 1985.
- فردينان دي سوسير: علم اللغة العام، ترجمة الدكتور يوئيل يوسف عزيز، مراجعة د مالك يوسف المطلبي، دار آفاق عربية، بغداد، 1985.
- لويك دوبيكير: فهم فردينان دو سوسير وفقا لمخطوطاته، ترجمة ريما بركة، مراجعة بسام بركة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2015.
- جيرار دولودال: السيمياءيات أو علم العلامات، ترجمة د عبد الرحمن بوعلي، مطبعة النجاح الجديدة - الطبعة الأولى-المغرب 2000 - الطبعة الثانية - دار الحوار- سوريا 2003- الطبعة الثالثة- درا الحوار 2011.
- Ferdinand De Saussure**, Cours de linguistique générale, Ed. Arbre d'Or, Genève août 2005, p. 22.
- C.S. Peirce**, Collected Papers, Harvard University Press, 1960, trad. fr.
- C.S. Peirce**, Écrits sur le signe, Seuil, 1978.
- Umberto, Eco**, Le Signe, 1973, Labor, 1988, Sémiotique et philosophie du langage, 1984, rééd. Puf, coll. « Quadrige », 2001 et Les Limites de l'interprétation, Grasset, 1992.
- Umberto, Eco**, (1985). Lector in Fabula, Paris, Grasset.
- Fontanille, Jacques** (1998). Sémiotique du Discours, Limoges, PULIM.

T.A. Sebeok, A.S. Hayes et M.C. Bateson, *Approaches to Semiotics*, Mouton, 1964;
T.A. Sebeok, *Perspectives in Zoosemiotics*, Mouton, 1972 et *Encyclopedic Dictionary of Semiotics* (3 vol.), Mouton de Gruyter, 1986.

Algirdas-Julien, Greimas, *Sémantique structurale*, 1966, rééd. Puf, 2002, *Du sens*, 2 t, Seuil, 1970 et 1983 et, avec J. Courtès, *Sémiotique. Dictionnaire raisonné de la théorie du langage*, 1979, rééd. Hachette, 1994.

Algirdas-Julien, Greimas (1970) *Du Sens*, Paris Seuil.

Bertrand, Denis (2000). *Précis de sémiotique Littéraire*, Paris Nathan.

Coquet, Jean-Claude (1997). *La quête du sens*, Paris PUF.

J. Fontanille et C. Zilberberg, *Tension et signification*, Mardaga, 1998.